

العائلات والفعل التربوي : ممارسة تقليدية أم إستراتيجية لإنتاج الخيارات

أ/ ناصر بودبزة

جامعة ورقلة (الجزائر)

Summary:

As the appearing of the school as a helping important system to the family created challenges concerning the socialization of children and their professional future , and the nature of roles given to them. The families' interactions in different fields in contrast with the families in the past were in relation face to face and produced its simple forms. These challenges threat its social identity therefore the family becomes rational about the Relationship with the school, concerning the strategy of the family toward the educational system or concerning the development of the cultural capital that is beneficial to the school and also gives legitimate to a superior culture that is near to school 's method . The families are obliged as groups or individuals actors, to construct rational action approved by the society and its system and the comprehension of others to its meaning. All these push and prompt to Product individual and groups efficient identities to the social construction.

الكلمات المفتاحية: المجتمع — العائلة — المدرسة — الفعل التربوي — إعادة الإنتاج — الاستراتيجيات — الخيارات العائلية

مقدمة:

اهتمت المجتمعات منذ القديم بتربية الأبناء، وأدى هذا الاهتمام إلى ظهور المدرسة بالمفهوم الحديث، بمناهجها التربوية، وبرامجها وطرق التدريس، سعياً لتعليم وتربية الأجيال على إتقان أدوارها في المجتمع، وذلك من خلال تلقي مجموعة من المعارف والمبادئ الأولية، التي تقوم أفعالهم، وتثير عقولهم، وتدفعهم للبحث والتمحيص وفهم الظواهر المحيطة بهم، ومن أهم هذه الأدوار التي تقوم بها المدرسة هي الحفاظ على الهويات الفردية و الجماعية داخل المجتمعات.

تعد المدرسة وسيط فعال بين الأسرة والمجتمع، لذلك تعتبر مؤسسة للتنشئة الاجتماعية، تمد الأجيال الناشئة بالقيم و العادات، والتقاليد التي تؤهله لان يصبح كائن اجتماعي .

غير أن التحديات المتعاقبة دفعت بالمدرسة إلى إضفاء الشرعية للنقاوت الاجتماعي داخل المجتمع، و ذلك من خلال دعم ثقافة على حساب ثقافة أخرى، مما نتج عنه بروز الرأسمال الثقافي كعنصر أساسي في تشكل المجتمع، وتقسيم العمل بين شرائحه المتفاوتة في رأسمالها و استراتيجياتها، والتي تعمل على إعادة إنتاجه من خلال مؤسسة المدرسة، بفاعليها، ومحتويات برامجها، و رموزها، و شبكاتها المختلفة.

1- المدرسة مجال بديل للعائلة:

لم تعرف الإنسانية في عهدها الأولى هذه المؤسسة التربوية المتخصصة، فقد كانت تربية الطفل متروكة للعوامل غير المقصودة، ولما تبدله العائلة من جهود مقصودة في تربية الأبناء ورعايتهم، ولكن بعدما اتسعت مناحي التربية، وتعقدت طرقها، وأصبح القيام بشؤونها يحتاج إلى تخصص، وإعداد وإلمام بحقائق العلوم، والفنون، وخاصة بعد ما ظهرت الكتابة، ودون بفضلها كل ما توصل إليه الإنسان من حقائق، أصبحت تربية الجيل الناشئ تتوقف على إحاطته بما توصلت إليه الأجيال السابقة، وما دونته في ميادين العلوم، والفنون، هذا بالإضافة إلى التطورات التي عرفتها المجتمعات الإنسانية في مختلف الميادين، وخروج المرأة إلى ميدان العمل، عجزت العائلة عن أداء وظيفة التربية المقصودة وحدها، وكان لزاماً أن ينشأ بجانبها جهاز خاص، ينفصل شيئاً فشيئاً عن العائلة، ويتحرر قليلاً من سيطرتها، وأخذت الدولة على عاتقها مسؤولية التربية من خلال المدرسة، والتي تشكلت من عناصر مستقلة عن الآباء، والأقرباء، ويعدون إعداداً خاصاً للاضطلاع بهذه الشؤون.

شكل مفهوم المدرسة (school) العلاقة بين التربية والحياة، ففي الاشتقاق اليوناني القديم تعني (الفراغ)، ومن هذا المعنى نستدل على أنّ التربية الشكلية أو المقصودة بدأت تفقد صلتها، أو ارتباطها بالحياة وتبتعد عنها، كما نستدل على أنّ التراث الثقافي قد اتسع وتعقد، بشكل حتم على الإنسان أنّ يكون لديه متسع من الوقت لفهم هذا التراث، بعيداً عن مظاهر الحياة العادية، على أنّ ارتباط التربية بالفراغ، أو ارتباط المدرسة كمؤسسة لسد هذا الفراغ، قد ساير موجات التحسن الاقتصادي، فأدى هذا إلى متابعة العلم من أجل العلم، لا من أجل دخول حياة الكبار، مثلما هي عليه الآن، وفقاً لما سبق لا يتوقف دور المدرسة على تلقين المتعلمين الدروس، ولا ينبغي أن تقتصر عليها، بل ينبغي أن تنظم جميع نواحي التربية المقصودة، سواء في ذلك ما تعلق منها بالعقل، والإدراك، والدرس، وكسب المعلومات، وما اتصل منها بتعهد تقوية الجسم، والوجدان والإرادة، ومناحي الأخلاق، وعنيت المدرسة بتربية الطفل جسمانياً، وإدراكياً، ووجدانياً، أخلاقياً، وأعدته إعداداً سليماً، لحياته المستقبلية من الناحيتين الفردية، والاجتماعية، وزودته بما يحتاج إليه من معرفة ومعلومات، وقد تذهب المدرسة بعد ذلك إلى نواحي وفقاً لما تقتضيه ضرورات الحياة من جهة، وما تقتضيه مراعاة ميول الطفل، وما زود به من استعداد فطري، وما يقتضيه نوع المدرسة نفسها، وطبيعة موادها، ونواحي تخصصها من جهة ثالثة.¹

وفي المدرسة عدد كبير من الفاعلين من المدرسين، والمختصين في جميع نواحي النشاط، حيث يتلقى التلاميذ العلم والمعرفة، وتكسب المدرسة التلاميذ الاتجاهات، والقيم، والعادات، وتقدم لهم المهارات والخبرات التي يحتاج إليها المجتمع لضمان استمراره وتقدمه، ويتوقف نوع هذه الخبرات على ما يتوفر في الثقافة من معرفة وقيم ومهارات، وفي المدرسة تبنى الذوات والاتجاهات، والمسؤولية، والتقاني واحترام القانون، والتمسك بالحقوق وأداء الواجب، والعمل بروح التعاون، والولاء للجماعة والمجتمع الذي يعيشون فيه، والمدرسة نسق فرعي ضروري من الأنساق الاجتماعية، يقوم بهذه المهام المذكورة بعد أن عجزت الأنساق الأخرى عن القيام بها، وهي تختلف فيزيقياً وتنظيمياً عن المصانع، والمستشفيات، والإدارات الحكومية الأخرى، فبناء المدرسة يراعي مكتب المدير، والإداريون، والتي تكون بعيدة عن الفصول الدراسية، والتي تعتبر بدورها القسم الرئيسي للبناء الفيزيقي للمدرسة، والذي يشغله كل من التلاميذ والمدرسين، وتشمل أماكن الجلوس، وجماعات العمل الدراسي، وتخصيص الأماكن الدراسية، والتي تراعي أساليب القيادة التعليمية داخل الفصل الدراسي، وحجمه، وأنماط التلاميذ حسب قدراتهم،

بالإضافة إلى وجود أماكن الملاعب، والطعام، والخدمات الطبيعية العاجلة، والخدمات السيكولوجية، والاجتماعية، والمكتبية، والمعامل وغيرها من الأماكن العامة، التي تؤثر في سير العمليات التعليمية، وتقديم الأنشطة المدرسية الملائمة للتلاميذ، و التي تنمي روح الابتكار والاختراع، والفكر المتفتح، ولا تقتصر أهميتها على المناهج والمعارف، بل في خلق تنظيم اجتماعي متنوع العلاقات، وشكل هذه العلاقات الهرمية بين الإدارة والأساتذة، والأساتذة وزملائهم، والأساتذة وتلاميذهم، والتلاميذ وزملائهم، ويتبلور في شكل الثواب، والعقاب، وتعمل المدرسة على غرس قيم، ومعايير، مثل: الولاء، والطاعة، والتنافس، والمثابرة وهي ضرورية لنظام العمل⁽²⁾

2- المدرسة مجال لنقل الثقافة و إنتاج الأدوار الاجتماعية:

إن وظيفة المدرسة من وجهة نظر المجتمع ككل، بل كثيرا ما يكون وجهة نظر المجموعات داخل المجتمع، هي المحافظة على الثقافة لأنّ قدرة الإنسان على التعليم، وتنظيم التعليم في صورة رمزية، وتوصيل هذا التعلم كمعرفة إلى أعضاء الجنس البشري الآخرين، لأنّ أي حضارة تقوم على تلك الثقافة من خلال قدراتها على نقل معارفها، كأنظمة شبه مستقلة ذات قرابة، وهذه تمثل المعرفة المتراكمة في ميدان من ميادين البحث، وتتضمن المادة الدراسية في التربية، وهذا هو ما نعنيه حين نذكر أن مسؤولية المدرسة نقل التراث الثقافي .

و تشمل الثقافة بطبيعة الحال أكثر من مجرد المعرفة التراكمية بين كل ميدان من ميادين المعرفة، فهي تتضمن القيم، والمعتقدات، والمعايير المتوارثة جيلا بعد جيل، وإذا كان يحدث فيها تعديلات متكررة على مدى تاريخ المجتمع⁽³⁾.

إنّ التربية تنقل ذخيرة ثقافية إلى الجيل التالي، وهي دائمة العمل على حشد صغار المتبربرين على الأخذ بوسائل الكبار المتصلة من الماضي. وانتقال الثقافة وتراكمها من جيل إلى جيل، له دلالاته المميزة للإنسان، من الأصول الأولى للمجتمع البشري، بيد أنّ دور التربية المدرسية كان واضحا، في هذه العملية طوال فترة قصيرة فقط، من تاريخ الإنسان، والى حد ما يشير إليه "بورتن كلارك" على أنّ أقدم نظم التعليم لم تكن تزيد على تنقيف امرأة، أو رجل لصبي، وهما يسيران معا يتحدثان، ويعملان، ويمكن أن نراهن على أنه لم تكن هناك دروس أولوية في العصر الحجري، لتعليم تقطيع الحجر، وإنما كان الصبي يتعلم سن الحجر بمراقبة الكبار، ومع تزايد مخزون الإنسان من المعرفة، وزيادة تعقد المجموعات التي يعيش بينهما، أصبح من الضروري تطوير الوسائل المتخصصة في عملية نقل الثقافة، لنقوم بتعويض ما تخلفت عنه الأسرة، فإنّ معظم التاريخ الحديث وعلى امتداده في الماضي كانت التربية الرسمية أو المدرسية مقصورة على أقلية ضئيلة من أعضاء المجتمع، وهم عادة النخبة الممتازة الحاكمة أو أعضاء الجماعات الدينية، ومع ذلك فإنّ الانقلاب الصناعي وإنتاجه أدت إلى ظهور تحديات، تمثلت في ذخيرة المعرفة البشرية والمهارات الفنية، التي اندفعت بقوة إلى خارج حدودها الضيقة نسبا، وغيرت البناء الاجتماعي للمجتمع تغيرا جذريا، فلم تعد الأسرة بعد ذلك هي الوحدة الأولية للإنتاج، كما كان الحال وقت سيادة الاقتصاد الزراعي (الإقطاعي)، وأصبح عدد كبير من الرجال يتركون بيوتهم كل يوم للعمل بالشركات الصناعية، والمكاتب.

فهذا التحول الذي طرأ على البناء الأساسي للمجتمع، الذي كان ينزع إلى تمزيق وحدة الأسرة، مع زيادة مجموعة متنوعة من الوظائف المتاحة، ويحتاج كل منها إلى مهارات، ومعلومات مختلفة بعض الشيء، جعل من

المتعذر على الأعضاء الجدد في المجتمع التعلم عن طريق ملاحظة آبائهم، ولم يقتصر الأمر على سعة مجال الاختيار بين الصغار، للمهارات التي يمكنهم الحصول عليها أكثر مما كانت الحال بالنسبة لأبائهم، بل لم يعد رب العائلة يستطيع العمل، أين يمكن لأطفاله ملاحظته والتعلم منه.

ويمكن القول أن التعليم المدرسي أصبح ضرورة، حين أصبح البيت والمجتمع غير مؤثرين، بل غير قادرين على تدريب الأطفال، وإعدادهم لمرحلة الرشد عن طريق الاتصال غير الرسمي، وقد ظهر طراز جديد من العوامل الثقافية أدت إلى تغيير طبيعة المعرفة، والعمل إلى دخول أطفال الرجل البسيط مبنى المدرسة، وأعطت المدارس دورا في انتقال الثقافة، واستمرارها أكثر اتساعا وعمقا إلى حد بعيد، ونحن نستطيع التنبؤ بازدياد قيمة وظيفة المدرسة، التي أخذت على عاتقها كل ما كانت تقوم به الأسرة من وظائف، فيما يتصل بتهيئة الصغار تهيئة اجتماعية، ونقل الثقافة.

وبالرغم مما يبدو من اتجاه نحو السماح للأطفال بالالتحاق بالمدارس في هذه البلاد، أو تلك في سن أصغر، فإن الأسرة لا تزال بالفعل هي العامل الوحيد في تهيئة الطفل اجتماعيا، خلال السنوات الخمس الأولى من حياته، فهذه الفترة هي التي يتعلم الطفل إبانها الكلام، ويكون العلاقات المتبادلة مع غيره من الأشخاص، حيث يبدأ الطفل في استمجا قيم اجتماعية، واتخاذ عادات معيارية، وطرح عادات أخرى، مما يمكنه من القيام بدوره كعضو في مجتمع نظامي.

إن العائلة لا تفقد اهتمامها بالطفل حين يبلغ سن الدراسة، ففي معظم الأحوال يستمر الوالدان والإخوة وأعضاء العائلة الواسعة (العمات، الخالات، والأعمام، والأخوال، وأبناء العم والخال)، في إحداث تأثيرات قوية للتهيئة الاجتماعية للطفل، بالإضافة إلى ذلك تقوم الأسرة بعملية تقسيم المسؤولية لتهيئة الصغار اجتماعيا، ويجب ألا تقتصر المدرسة فقط على البدء بالأطفال الذين حصلوا بالفعل مجموعة من القيم، والتي في بعضها قد تتعارض مع القيم التي تأخذ المدرسة على عاتقها غرسها، ولكن يجب أن تواصل تعاملها مع المؤثرات الموازية، وكذلك المنافسة، والتي تأتي من الأسرة بصرف النظر عن مجموعة أقران الطفل، في الفترة التي يكون فيها تحت رعايتها⁽⁴⁾.

إن اختلاف الوظائف داخل المجتمع، دفع الأفراد للبحث عن الأحسن، من حيث التدريب والكفاءة، وهذا ما أدى إلى ظهور تنافس على الوظائف ذات المكافآت العالية، والأقل خطرا، والتي تمنح المكانة الاجتماعية الأحسن، غير أن مشكل تكافؤ الفرص في التوظيف يبقى مطروح، لأن هناك ميزات مازالت تُحدّد وتقرر من يتقلد وظيفة دون أخرى، ومن يتقلد ولا يتقلد، وأهمّ هذه الميزات، العائلة، الجنس، العنصر، الدين... وغيرها .

ولما كانت المدرسة المسؤول الثاني عن تنشئة الأفراد بعد الأسرة، أصبحت هي المحدد لمكانتهم، من خلال الفرص المتاحة للتلاميذ، وأسلوب النجاح، وطرق التوجيه والتقييم.⁽⁵⁾ ولما كان الأطفال يقضون شطرا كبيرا من ساعات يقظتهم بالمدرسة، وفي أنشطة لها صلة بالمدرسة، فليس مما يبعث على الدهشة، أن يكون لأولئك الذين يقابلهم الطفل بالمدرسة تأثيرا هاما على أفعالهم، بما في ذلك تكوين طريقة في تقييم الأشياء، ومواقفه إزاء مختلف المعايير الاجتماعية، فعن طريق توسيع دائرته مع الآخرين، يستطيع الفرد أن يجد فرصة لإعداد نفسه إعداد ملائما لمختلف الأدوار، التي يجب أن يضطلع بها الفرد البالغ في المجتمع، ولكي يقوم الطفل بدور البلوغ على وجه مناسب، يجب ألا يتعلم دور الأب والأم فحسب، بل دور التلميذ والمعلم، و دور الزوج والزوجة، ويجب أن يتعلم

الأطفال شيئاً عن عائل الأسرة، يضاف إلى هذا أنّ الطفل يبدأ في تحصيل قدر أوفر من القدرات العامة، للقيام بأدوار الكبار في سن مبكرة، وتلعب المدرسة دوراً أكبر، مثلاً في مساعدة الأطفال على تعلم ضبط انفعالاتهم، والتعامل مع مراكز السلطة، وكذلك تولي القيام بها، وإدراك وجود هيئات ذات سلطة في المجموعات الاجتماعية⁽¹⁾، وهناك سمه لعملية التطبع أو التهيئة الاجتماعية، كثيراً ما يغفل أمرها، وهي ذات صلة وثيقة بأية مناقشة لوظائف المدرسة في المجتمع المعاصر، كمعرفة الطريقة التي تحدث بها المشكلات، أو على الأقل معرفة طريقة محاصرتها، كما أنه لا بد من معرفة طريقة حل هذه المشكلات، واكتساب الوسائل الفنية المساعدة، لأنها تُعد جزءاً هاماً مكملاً للعملية التربوية.

إن الدور الاجتماعي للمدرسة هو أوسع من التعليم إن النظام المدرسي يقوم بدورين أساسيين هما:

— يضمن نقل المعارف و استمرارية القيم الاجتماعية التي تحكم الحياة الجماعية.

— هي المحفزة لقيم المعاصرة، و التي تسمح بالتغيير.

و يرى "دوركايم" أن المدرسة أداة أساسية للتطور الاجتماعي و ثورة باتجاه مجتمع أكثر عقلانية.

ويرى الوظيفيون الأمريكيون "بارسونز" ، "ميرتون"،... إن المدرسة لها وظيفة الإدماج الاجتماعي، أين تجمع الأفراد حول هدف شرعي يضعه المجتمع، و وسيلة شرعية، لهدف شرعي مثال ذلك: النجاح المدرسي هو وسيلة شرعية لتحقيق هدف شرعي ألا وهو النجاح الاجتماعي.

و ينظرون إلى المدرسة على أنها تمارس ثلاث وظائف كبرى وهي:

أ. وظيفة الاندماج في الحياة الجماعية الرسمية.

ب. وظيفة صناعة الكائن الاجتماعي من خلال التنشئة، و نقل ثقافة المكانة لاعتماد السلطة الاجتماعية.

ج. وظيفة العصرنة، لأنها التي تعنى بنقل قيم المعاصرة.⁶

3- المدرسة و الأصل الاجتماعي كحقل لإعادة إنتاج الاجتماعي:

تعمل المدرسة على إبعاد شريحة واسعة من أبناء المجتمع، بوصفون بذوي الأصول غير المقبولة ثقافياً، إن العوائق الثقافية تقف أمام وصول هذه الشرائح إلى التعليم العالي، يعد الأصل الاجتماعي أهم مؤشر دال على الاختلاف و التمايزات بين الطلبة الذين يسعون إلى النجاح.

إن النجاح المدرسي يبني في ممر ما بين المكانة الاجتماعية للأباء و المكانة الاجتماعية للأبناء: فالمدرسة هي الممر الإجباري لتحقيق النجاح، ومؤشران للأصل الاجتماعي للفرد حسب "طاشي باناكي" "Tachibanaki" هي:

أ. الوضع الاجتماعي للأب له تأثير مباشر.

ب. المستوى التكويني الذي يؤثر من خلال الوضعية الاجتماعية للأب له تأثير.⁷

في سنوات الستينات في إنجلترا و فرنسا و أمريكا أجريت أكبر التحقيقات حول الحراك، حيث تم دراسة تأثير تقاطع الاقتصاد على الحراك المهني و الاجتماعي، وتحليل تطور اللامساواة الاجتماعية في فترة تميزت بمستوى معيشي مرتفع بسرعة، وقد تم التركيز كذلك حول أسباب هذه الظاهرة، من خلال دراسة الترتيب الاجتماعي و أشكال الحراك، و تم التوصل حول مسؤولية الأصل العائلي و النظام التعليمي في الحراك.⁸

إن مؤلف "الورثة" "les Héritier" لـ"بيار بورديو" و "باسرون" سنة 1964م والذي يتعلق بالطلبة يشير إلى أن المدرسة تعيد إنتاج اللامساواة، و بناء نظام يهبط النخب، إن اللامساواة الفرص التعليمية لا تعد شيء غير وظيفي للنظام (معيق)، و لكن نتيجة مرجوة و مرغوبة، حيث يرى "بورديو" أن شرعية الثقافة البرجوازية تساهم في إعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية، و شرعية اللامساواة تكون عن طريق اديولوجيا الموهبة أي في حالة الإخفاق، فالفرد لا يملك موهبة، وهذا لا يرجع إلى البعد الكبير بين الأبتوس الأولى المتمثل في العائلة، و الأبيتوس الثانوي المتمثل في المدرسة، و صعوبة استدماج الأبيتوس الثانوي، إن اديولوجية الموهبة تترجم اللامساواة الاجتماعية من خلال الرسوب الفردي، أو الموهبة الفردية، و التي يتم انتقائها و شرعيتها من خلال الشهادات.

يرى "بيار بورديو" أن اللاتكافؤ الفرص التعليمية هو نتيجة للوظيفة الموضوعية، و الدور الحقيقي للمدرسة ليس التقليل من اللامساواة و لكن إنتاج اللاتكافؤ الفرص التعليمية و شرعيتها، في المدرسة لا يتم الانتقاء حسب كفاءة التلميذ أو ذكائه، و لكن أقل شيء المسافة الكبيرة الموجودة بين أبتوس تلميذ عن تلميذ آخر.

إن المدرسة تمارس عنف رمزي "la violence symbolique" و تتعامل مع التلاميذ حسب فنئهم الاجتماعية (الطبقة) الانتماء أو الأصل الاجتماعي⁹ التي تعد روابط تتحكم في نجاح التلاميذ، و من أجل ذلك يجب معرفة العمليات المركبة و المعقدة التي تشكل هذه الروابط، لأن النجاح الدراسي لا يرتبط فقط بتعلم المعارف المختلفة، و ليس التلميذ الجيد من يجيب على مختلف ما تطلبه المدرسة، و لكن هذه المعارف و الإجابات لا توجد دائما داخل المدرسة، بل هي معارف موجودة خارج المدرسة تنقل و تتبنى بطرق مختلفة حسب المحيط الاجتماعي للتلميذ وأهمها:

1. الإرث العائلي: "L'héritage familial"

2. الرأسمال الثقافي: "le capital culturel"

هناك عمليات في النظام التعليمي لها دور في الانتقاء الاجتماعي (الموهبة، اتجاهات، أدواق...) ¹⁰، و من بين أهم مؤشرات اللاتكافؤ الثقافي المستوى الدراسي للأباء، الذي في الغالب يستعمل و لكن المؤشرات الأخرى غير المستعملة تؤخذ في الحسبان عند الدراسة. (أقدميه رأسمال من جيل إلى جيل).

إن اللامساواة في المعلومات بالنسبة للمدرسة، و النظام التعليمي و وظائفه، و اختلاف التنشئة الاجتماعية الأفراد، تبرر اللاتكافؤ الذي يرتبط بمكان الإقامة أين توجد الإيجابيات الثقافية، إن تأثير الإرث الثقافي الذي يدفع بالتلاميذ المنحدرين من الفئات المسيطرة إلى بناء معارف لها علاقة بالمدرسة وثقافتها، إن تلاميذ الفئات المسيطرة في المجتمع تتعلم من ثقافتها ما لم تتعلمه في المدرسة، و هي الأقرب إلى لغة المدرسة. (إيديولوجية المدرسة).

لهذا بيار بورديو اقترح مصطلح "الرأسمال الثقافي" و قام بتفكيكه إلى ثلاث أشكال:

أ. رأسمال ثقافي متمثل في الأساليب المختلفة التنظيمية، و اللغة، و العلاقة بالمدرسة و الثقافة.

ب. رأسمال ثقافي متمثل في الثروة الثقافية كالكتب، القواميس، أدوات، و طرائق استخدامها.

ج. رأسمال ثقافي متمثل في الشهادة المتحصل عليها و هنا تتحول إلى رأسمال اقتصادي يتلاءم مع عروض العمل في سوق العمل.

إن مساهمة المدرسة في خلق الطبقة داخل المجتمع، من خلال وظيفتها التعسفية و فرض شرعية الطبقات المسيطرة، و التخفي وراء إيديولوجيا تكافؤ الفرص التعليمية، هذا ما أكده "بيار بورديو" من خلال المناهج التعليمية

التي تعزز شرعية الفوارق الطبقية الاجتماعية المسيطرة، وبهذا تساهم المدرسة في إخفاء فرض الحقل الرمزي، وتظهر الطبقية بتعزيز الرأسمال الرمزي، حيث أن أولاد الطبقة المحظوظة (المهيمنة) يصلون إلى المدرسة، وهم يملكون رأسمال لغوي "Linguistique" يؤهلهم لغويا، ويكونوا أقرب إلى لغة المدرسة من الرأسمال اللغوي الذي يحمله الأطفال المنحدرون من أصول شعبية، والذين يطال أغلبهم الإقصاء المدرسي أو الرسوب، كنتيجة لترسيخ الأبيتوس الطبقي، ويكون العنف الرمزي مستتر من خلال الادعاء أن النظام التربوي يتمتع بالاستقلالية، ويحقق المساواة، وبهذا يحافظ على الطبقية بلطف⁽¹¹⁾، وذلك فالمستوى الثقافي للعائلة له علاقة وطيدة بالنجاح المدرسي، ويعتبر دور الأم بالأخص هام جدا في المراحل الأولى للطفل داخل المدرسة.⁽¹²⁾ إن ديناميكية الحقل اللغوي هو حالة واقعية لقوانين النقل الشرعي للرأسمال الثقافي ما بين الأجيال.¹³

إن الثقافة المدرسية هي ثقافة الطبقة المتفقة، و الطلبة ذوي الأصول المنتمية لهذه الطبقة يسمح لهم بالتظاهر والمشاركة، و يكونوا جاهزين لمواجهة المدرسة، و الأحكام المهنية للمعلمين، في المقابل الطبقات الدنيا تجد نفسها تواجه ايولوجيا الموهبة التي تعطي الشرعية لدونية ثقافتهم، و التي تسمح بنقل الإرث الاجتماعي بشكل مضلل، وتأخذ الطبقات الشعبية في الحسبان احتياجات الطبقات العليا، و تعيش سلبياتها كأنه شيء مقدر و شيء شخصي.¹⁴

4- الاستراتيجيات الفردانية و اللامساواة التعليمية:

عند دراسة "ريمون بودون" التحليلية للحراك الاجتماعي في المجتمعات الصناعية، صادفه مؤشرين أساسيين هما:

1. توزيع الأفراد في النظام التعليمي.

2. توزيع الأفراد على المستوى المهني.

فسر "بودون" اللامساواة الاجتماعية في المدرسة من خلال نموذج نظري قائم على فرضيتان هما:

أ. الأصل الاجتماعي يسير من طرف مكانزمات وسيطة (جماعة الأصل، الإرث الثقافي...)، وتوزيع متنوع لمفهوم النجاح و العمر.

ب. متابعة الأفراد في النظام التعليمي مربوطة بعملية أخذ القرار في المقياس الذي يعمل من خلال المكانة الاجتماعية.

و يرى أن هناك نوعان من التلاميذ في المدرسة، أطفال يحققون النجاح لأن ما يوجد في أسرهم أحسن مما يوجد في المدرسة أو أقرب من ثقافة المدرسة، وهناك غاية لاستثمارهم في النجاح المدرسي (استراتيجيات العائلة)، وأطفال الطبقات الشعبية الذين يواجهون الرسوب في أول مرحلة تعليمية من بين الأطفال الذين يلتحقون بالمدرسة .

يؤكد على أن النظام التربوي مرن وتميزي "Ségrégatif"، مبني على اللامساواة في المواهب و الأدواق و الاتجاهات، واختلاف الثقافات العائلية التي تجسد الخيار الأحسن "le bon choix"، لأن التخصصات التعليمية متصلة بسلطة هرمية جسدت في لغة التكوين و التخصصات و المهن...

مثال ذلك: اللغة الفرنسية هي لغة مسيطرة اجتماعيا في الجزائر.

إلى جانب هذا الخيار الجيد للمؤسسة التربوية يعد من بين الخيارات الإستراتيجية الهامة في حياة التلميذ، حيث تختار العائلات لأبنائها من بين التعليم العام والتقني، وما بين العلوم الطبيعية والآداب، أو التكوين القصير

والتكوين الطويل المدى، وكذلك ما بين المؤسسة التعليمية الحكومية والخاصة، أو حتى ما بين المؤسسة التعليمية الجيدة والمؤسسة الأضعف في الأداء

إن التفرعات الاجتماعية التي فرضتها التحولات المتسارعة في المجتمعات وطبيعة السكان، أنتجت تنوع في المدارس، مدرسة للطبقة الوسطى وأخرى لأبناء العمال و المهاجرين، أي نتج تجانس اجتماعي، وهنا يترك الهامش للأسر لممارسة خياراتها، كل مؤسسة لها خصائصها سواء العمومية أو الخاصة، من حيث المحيط والتجهيزات والمدرسين و الجوانب البيداغوجية، وكذلك الخصائص الاجتماعية والمدرسية بالنسبة للجماعات الاجتماعية المختلفة، ليس لهم نفس الاحتمالات في الخيارات وليس نفس التحفيز، وكذلك ليس لهم نفس الخصائص أو نفس الإمكانيات، من أجل الطريقة الفعالة التي يجب إتباعها.

أما في الوضع التربوي الجزائري فنجد أن الأسر لها خيارات سواء بين المؤسسة القريبة أم البعيدة وبين الأساتذة الأكفاء وغيرهم، وبين الدروس الخصوصية و الدروس الرسمية، والدعم في اللغات الأجنبية وحتى العربية، واللجوء للمدرسة الخاصة إذ طالهم الرسوب بزيادة الإنفاق لضمان النجاح، لأن التعليم تظهر اجتماعي بالنسبة للأسر الغنية، فهي لا تبحث عن الوظيفة من ورائه، ولكنها تبحث عن الواجهة. إن المستوى الثقافي للتلميذ يقاس باختبار القيم المدرسية لدى التلميذ التي يقيّمها الأستاذ من خلال المسار التعليمي للتلميذ، و الامتحانات نفسها تقيس الأصل الاجتماعي للتلميذ، وهذا ما ينعكس سلبا على أبناء الطبقة الشعبية، لأن الطبقة الوسطى ثقافتها مكرسة وشرعية في المدرسة، أجازتها الطبقة العليا للحفاظ على النظام الاجتماعي.¹⁵

و يؤكد "ريمون بودون" أن المدرسة ليست المجال الذي يفرض منطقة على الفاعلين، بل هو حقل ينجز فيه الأفراد إستراتيجياتهم، أي أن اللامساواة التعليمية هي نتيجة لامتحان هذه الاستراتيجيات المختلفة للفاعلين، الذين يشغلون وضعيات مختلفة في المجال الاجتماعي.

وينطلق من أن المجتمع غير موجود، والضبط الاجتماعي ما هو إلا الآثار المتحصل عليها في المستوى الإحصائي من خلال تجميع عدد لا يحصى من السلوكات الفردية، والخيارات التعليمية هي خيارات استثمارية منبثقة عن رؤية مسبقة للكلفة، والإيجابيات المرتبطة بمختلف الوضعيات، وكيفية حساب الكلفة، والعوائد المرهونة بالوضعيات التي يشغلها الفاعلون في المجال الاجتماعي "L'espace Social".

إن تكافؤ الفرص التعليمية هو اختلاف احتمالات الوصول إلى مختلف مستويات التعليم، تبعا للأصل الاجتماعي l'origine Social، لأن أبناء العائلات ذات المستوى العالي اجتماعيا يصلون في تحصيلهم المدرسي إلى الدراسات العليا في الجامعة، أو المعاهد العليا، في المقابل احتمال وصول أبناء عائلات العمال البسطاء ضئيل جدا، كما يظهر اللاتكافؤ الفرص التعليمية أيضا في المراحل الدراسية الانتقالية أي مراحل التوجيه نحو التخصصات (العلمية / الأدبية) وبين التخصصات نفسها مثل: (الطب، التعليم، المحاماة...)، وهذه المراحل مصيرية جدا للأبناء و عائلاتهم في مختلف الشرائح الاجتماعية، حيث يتجه أغلب أبناء الفئة العمالية البسيطة إلى تخصصات قصيرة المدى، أما أبناء الفئة العليا يتوجهون إلى التخصصات طويلة المدى، وذلك راجع إلى تكلفة التكوين، وبدافع الحاجة يتوجه أبناء الفئات العمالية إلى التكوين القصير المدى من أجل البحث عن العمل لتلبية حاجياتهم و عائلاتهم، وهناك عاملان يبرزان اللاتكافؤ الفرص التعليمية هما:

1. الإرث الثقافي L'héritage culturel للأسرة يلعب دور في تحصيل الأبناء، فكلما تحسن الوضع الاجتماعي للأسرة كلما بلغ الأبناء مستويات أعلى (الجامعة).

2. زيادة الطلب على العلم في الفئات الاجتماعية المتوسطة أكثر من الفئات الفقيرة .

بالنسبة لـ " ريمون بودون" الفاعلين عقلايين و يضعون اختيارات لمستقبلهم، ويأخذون في الحسبان أصلهم الاجتماعي، لأن مسارهم المدرسي محدد سلفا، حيث يحسبون التكلفة الاقتصادية والاجتماعية لإتباعهم دراسات طويلة أو قصيرة المدى حسب انتمائهم الطبقي، فالطبقات الشعبية يتجهون إلى الدراسات القصيرة المدى من أجل تحقيق مكانة أفضل و وضع اجتماعي أعلى من وضع آبائهم، أما بالنسبة لأبناء الطبقة العليا فالاستثمار الشخصي من خلال المدرسة له أهمية كبيرة، حيث يسمح لهم بالحفاظ على مكانة آبائهم.¹⁶

إن هذه الاستراتيجيات المبنية على حساب الربح والخسارة، هي التي تفسر المسارات المختلفة للأصل الاجتماعي للأبناء وليس النسب الإحصائية للنجاح، ويؤكد " ريمون بودون" أن أبناء الطبقات الشعبية ينقصهم الطموح "l'ambition"

ويشكل لهم الرسوب حالة خطر، بالموازاة نجد أن أبناء الطبقات العليا لا يمثل لهم الحصول على " شهادة" كل شيء في الحياة، بل لهم علاقات العائلة وإمكاناتها المادية من ارث الثقافي، ارث مادي، رأسمال اجتماعي...، وبالنسبة لـ " ريمون بودون" الأصل الاجتماعي ليس هو المؤشر المفسر للمساواة بالنسبة للنجاح المدرسي، بل الطموح والإستراتيجية هما المؤشران المحددان للتفاعل مع المجال الاجتماعي للأبناء.

5- الخيارات المدرسية ومنطق العائلات:

و يرى "فان زانتن" « van zanten » أن السوسيولوجيا البوردوية سقطت في التكرار الميكانيكي للنماذج المبنية على النصوص الثقافية و الاجتماعية.

فقد قدم " فان " أدلة من أجل تفسير خيارات و أفعال الآباء، أراد "فان زانتن" أن تشمل أفعال الآباء حول الخيارات المدرسية في الحقل السوسيولوجي للطبقات الاجتماعية، من حيث إيجابيات التموثق و المحيط الاجتماعي، والتحول من الرأسمال الاقتصادي والرأسمال الثقافي.¹⁷ حيث يرى أن القيم التي تدفع بالعائلات إلى اختيار مدرسة يدور حول ثلاث محاور هي :

1. الآباء يقبلون السمات الثقافية والاجتماعية كشرط في المدرسة التي يختارونها.

2. النظرة حول عالم المدرسة و المساواة.

3. نظرة العائلات نحو عالم المدرسة و الاندماج.

كما أكد على أن تكافؤ الفرص بالنسبة للآباء شيء ضروري، وذلك حسب الدراسة التي قام بها و المتمثلة في 167 مقابلة مع عائلات من الأحياء الراقية والأحياء الهامشية.¹⁸ أما فيما يخص طريقة نقل الرأسمال الثقافي للأبناء، يكون عن طريق التنشئة الأسرية، وهنا تلعب الأمهات الدور الكبير في نقل الرأسمال الثقافي، وأول شيء هو نقل "أبيتوس" متعلم وليس مجرد متابعة مدرسية، بل كذلك "أبيتوس" لطبقة متميزة من خلال إعطاء رأسمال ثقافي للأبناء(حفلات، مسارح، النشاطات الرياضية...) الذي ينمي اتجاهاتهم، التي تنم من خلال المدرسة، والتي توجه إلى سوق العمل، وكذلك العمل على تحويل الرأسمال الاقتصادي إلى رأسمال ثقافي من خلال شراء نوعية

العرض الدراسي، وذلك بالاتجاه إلى التعليم الخاص سواء من خلال الخيارات الاقامية، غير أن هذه الخيارات تتميز بأنها مكلفة اقتصاديا.¹⁹

إن البناء العائلي للامتياز الدراسي يمر من خلال نقل الرأسمال الثقافي و استثمار اقتصادي، وهناك عامل نفسي تقوم به الأمهات خاصة، هو كيفية إقناع الأبناء، بالأهداف المرجوة، والتي يرغب فيها الآباء، وهنا يقوم الآباء بإقناع أبنائهم على أن الخيارات هي خيارات الأبناء، إن عمل الآباء يطبق على مجموعة ميادين من الخيارات: مهنة المستقبل – الأصدقاء – الترفيه – المؤسسة التربوية.

والشيء الجيد في اختيار المؤسسة، هو أن يطلب الابن اختيار مؤسسته، وهنا يعني احترام رغبته الذاتية، إن اختيار مؤسسة تعليمية هو الفائدة الجماعية، التي يبنها الآباء في تلك المنطقة، لأن العرض الدراسي هو من يحدد طبيعة الأحياء و من يسكنها من عائلات.

إن الآباء عن طريق شبكة الأحكام « Réseaux de jugement » التي يؤسسونها بالاحتكاك مع مدراء المؤسسات، والمعلمين، عندها يدرك الآباء ضرورة تغيير المؤسسة، لأنه لا يوجد فيها العرض الذي يبحثون عنه. إن علاقة الآباء اتجاه المدرسة علاقة إستراتيجية، لأن المدرسة هي أداة لتحرير الأبناء من سلطة العائلة، لذلك يتبع الآباء استراتيجيات عديدة منها:

1. إستراتيجية لاستثمار الرأسمال الثقافي و الاقتصادي.
2. إستراتيجية للحراك الاجتماعي.
3. تكييف الممارسات اتجاه المدرسة
4. متابعة عمل المدرسة.²⁰

إن المدرسة لها هدف قديم هو التربية والحفاظ على الجانب القيمي للعائلات، و المدرسة تمارس تأثيرها على العائلات، و التمدرس يتطلب توفر موارد مالية و ثقافية للعائلات.²¹ و من أجل تطوير استراتيجيات يجب معرفة ما يحيط بالعائلة والمدرسة، بالرغم اللامساواة الاجتماعية و الجغرافية للمستهلكين للمدرسة، إلى جانب خيار المدرسة الخاصة هو هروب من الرسوب خاصة لدى العائلات المنتمية للصنف السوسيو مهني المتمثل في الإطار العلي.²² إن متابعة الآباء للفعل التربوي يتوسع من خلال سوق الأدوات البيداغوجية (مؤلفات، دليل للمراجعة، كرايس للعطلة، كتب أو مطبوعات لتعلم اللغات، برامج الكترونية تربوية...)، إلى جانب شبكة العلاقات في محيط المدرسة، أين يربط الآباء علاقات جيدة مع أساتذة أبنائهم، وهذا يلاحظ بشكل كبير لدى الطبقات العليا، سواء بشكل فردي أو جماعي، إلى جانب الطبقات الوسطى الذين يؤسسون علاقات جيدة مع المعلمين، لأنهم يشتركون في قاسم مشترك، و لهم دراية كبيرة بالعملية التعليمية أكثر من غيرهم.²³

خاتمة:

إن المدرسة مؤسسة للتنشئة الاجتماعية، تعمل على بناء الكائن الاجتماعي، غير أن هذا لا يمنع من تأثرها بالادبيولوجيات المختلفة، للفاعلين و الدولة، مثال ذلك : الأستاذ الجامعي الذي يستغل حضور طلبته في المدرج من أجل التأثير عليهم في الخيارات السياسية لحزبه. إن الضغوط التي يمارسها المجتمع على المدرسة، تعد شكل من أشكال التفاعل، أين تبنى هويات متجانسة وأخرى غير متجانسة، و هذا كله تحدي يفرض على العائلات عند تبني خياراتها الإستراتيجية في علاقتها بالمدرسة و محيط المدرسة.

إن الأبناء يتفاعلون في مجالات أخرى خارج المدرسة و بعيدا عن العائلة، حيث يؤسسون استراتيجيات فردية أو جماعية، يكون لها تأثير كبير على مسارهم الدراسي، هذا ما يوجب على الآباء بناء ميكانزمات للمتابعة مبنية على الحوار و الاستيعاب، الذي يسمح بمعرفة الخلل في العملية التربوية، والمحافظة على مصالح العائلة الاجتماعية، لأن المدرسة قد لا تكون هي المكسر الحقيقي أو الخفي للمساواة بقدر ما هي مجال للاعبين الظاهرين والأيدي الخفية، و الادبيولوجيات، و الممارسات العقلانية و غير العقلانية.

المراجع:

- 1 - علي عبد الواحد وافي: عوامل التربية، مكتبة لأنجلو المصرية، القاهرة، 1958، ص14.
- 2- غريب سيد أحمد وآخرون: المدخل في علم الاجتماع المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص 67 إلى 69.
- 3 - جو سلين: المدرسة والمجتمع، محمد قدرى لطفى وزميله، عالم الكتب، القاهرة، (د.ت)، ص ص 22-23.
- 4 - المرجع السابق، ص 25.
- 5 - المرجع السابق، ص37.
- 6- Yves Alpe : **Les apports de la sociologie de l' éducation à l' analyse des situations scolaires**, pp4- 5.
- 7- PIERRE BOURDIEU : **LES étudiants Et Leur études**, Cottiers du centre de sociologie, européenne, Mouton, 1964, paris, p 33
- 8- Yves Alpe :Ibid, p 9 -
- 9 - Séminaire de sociologie générale , Pierre François , **Les inégalités scolaires**⁹
- 10 Marlaïne cacoualt et Françoise Oeuvarard : **Sociologie de l'éducation** , Edition Casbah ,1998,Alger.P52,53
- 11 - بيار أنصار: **العلوم الاجتماعية المعاصرة**، نخلة فر يفر، المركز الثقافي، ط1، بيروت، 1992، ص ص 38-39.
- 12 - Marlaïne Caccouault et francoise Oeuvarard : ibid,p52
- 13 - Pierre Bourdieu: **Ce que parler veut dire**, fayard, France, 1987, p53-
- 14 - Pierre Bourdieu : **Les Héritiers** , les étudiants de minuit, n:ed 3963, 2004,paris, p107
- 15 -ريمون بودون و رينو فيول: **الطرائق في علم الاجتماع**، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، ط1، لبنان، 2010، ص ص 56-57
- 16 -ريمون بودون : مرجع سبق ذكره ،ص 56 الى 58
- 17 _ Agnès van zanten : **Choisir Son école, Stratégies familiales et médiation locales**, PUF ,le lien Social, paris,2009,p12
- 18 _ Agnès van zanten Ibid,p81
- 19 _ Ibid, p 82
- 20 - Jean Manuel de Queiroz : **Lecole et ses sociologues**,2 édition, Armand Colin, paris,2010,p p 69_70
- 21- Jean Pierre Terrail : **La Sociologie des interactions famille/ecole**,sociétés contemporaines, printemps/université de versailles_ st_ 1977,pp 69_et77
- 22- Alain Leger : **Les Strategies des familles et le choix des établissements**,presses universitaires de lille,France,1992,p25
- 23- Marie Duru_ Bellat et Agnés Van Zanten : **Sociologie de l'école**, 3 édition Armand Colin, paris,2007, p p 165_166